د. عدنان أديب طرابلسي

عيد رقاد السيّدة العذراء

إن كانت على الكلمات أن تكون بمستوى الحدث وعظمته فالصمت أوجب وأولى! أيّ وصف يستطيع أن يلبّي ذهول النظر، وأيّ لسان يقدر على أن يصف هول الحدث؛ أيّ قلم يخطّ ما تعجز عنه الكلمات، وأيّ عقلٍ يتحمّل معاينة قمّة من القمم الصوفيّة: هيكل اللّه الحيّ مسجًّى، وتابوت اللّه يُعرض أمام ناظري أبنائه ورسله وخدّامه، ليعاينوا أمَّ النّور وأمّ الحياة وقد فارقت نفسُها جسَدها، ولبّت نداء ابنها للالتحاق به، ملكةً سماويّة لا ملكة بعدها، تجلس عن يمين الجلال في الأعالي.

أيّة أناشيد وأيّة ترانيم! أيّة تراتيل وأيّة تسابيح! السماء تنحني ثانية لتستقبل ملكة السماء والأرض، والأرض ترفع هامتها لتلامس السماء بمَن هي صلة الوصل بين السماء والأرض، وبين الخالق والمخلوق، بين اللّه والإنسان. حقًّا لحري بنا اليوم أن نصلّي إلى المسيح الإله طالبين منه نعمةً خاصةً لكي نستطيع الاحتفال بهذا العيد السيّديّ بكلّ لياقةٍ وواجب لائقٍ بسيّدة السماء والأرض، بأمّ اللّه وأمّ الإنسان، بملكة الحياة والنّور. لهذا نرتّل في هذا العيد:

«حصّن عقلي يا مخلّصي، لكي أجسر أن أمجّد أمّك الطاهرة حصْن العالم، وأيّدني ببرج الأقوال، وسوّرني بالمعاني القويمة، لأنكَ قد قلت إنّك تستجيب تضرّعات الطالبين إليك بإيمانٍ. فامنحني لسانًا ونطقًا وفطنة غير مخذولة، لأنّ من لدنك ننال موهبة الاستنارة أيّها الباعث النور، يا مَن حلَّ في المستودع الدائم البتوليّة».

أيّ عجب وأيّة غرابة! إن كان اللّه قد صار إنسانًا، والمستحيل ممكنًا، وغير الموسوع موسوعًا، وغير المنظور منظوراً، فلمَ العجب والغرابة: ها ملكة السماء تنطلق في موكبها الملائكيّ نحو عرشها السماويّ، وها جسدها يلتحق بها.

اليوم تحتفل الكنيسة بأكثر من عيد وأكثر من لاهوت، لأنّ اليوم هو عيد جلوس طبيعتنا المتجدّدة في مكانها اللائق بها في شخص والدة الإله، لدى العرش الإلهيّ؛ اليوم هو عيد الشفاعة التي لا تكفّ عن الصلاة من أجلنا، في أيّامنا وأعمالنا، لدى عبورنا بحر الأحزان والآلام.

اليوم الأرض تتبارك بدفن أمّ الحياة، والهواء يتقدّس بارتقائها الغريب، الملائكة تسبّح مذهولة، والشياطين تفرّ مذعورة. اليوم الأرض تحتضن الجسد المانح الحياة، والسماء تستقبل أمَّ الحياة، الرسل يجتمعون، والكنيسة بأسرها تعيّد، والجميع يهتف بخشوع:

«في ميلادكِ حفظتِ البتوليّة وصنتها،

وفي رقادكِ ما أهملتِ العالم، وتركته يا والدة الإله،
لأنّك انتقلتِ إلى الحياة، بما أنّكِ أمّ الحياة،
فبشفاعاتكِ أنقذي من الموت نفوسنا».

رقاد السيّدة العذراء عيدٌ يرتبط بسرّ تجسّد ابن اللّه وتأنّسه:

عيد بشارة والدة الإله (لوقا ١: ٢٦– ٣٨) هو عيد التجسّد الإلهيّ. فمريم العذراء حاضرةٌ في قلب التجسّد الإلهيّ، لأنّها أداته وخادمته ووسيطته، بها صار التجسّد واقعًا، وإليها آلت المواعيد الإلهيّة، وبها تحقّقت لخلاص البشريّة. كما يقول القدّيس بالاماس: «إنها علّة ما أتى قبلها، ونصيرة ما أتى بعدها وأداة الأمور الأبديّة. إنّها ثروة الأنبياء، ومبدأ الرسل، والأساس الراسخ للشهداء ومقدّمة معلّمي الكنيسة. إنّها مجد الذين على الأرض، وفرح الكائنات السماويّة، وزينة المخلوقات جمعاء. إنّها بدء الصالحات غير المنطوق بها وأصلها؛ إنّها ذروة كلّ شيء مقدّس واكتماله». أمّا القدّيس مكسيموس المعترف فيقول عن جسد أمّ اللّه: «إنّه كونٌ كبير macrocosmos في منمنمٍ miniature، هذا هو كمال العهود التي جعلها اللّه معنا، هذا هو تجلّي الأعماق الخفيّة، فجسد والدة الإله هو مانح الحياة، إذ استقبل ملء اللاهوت المانح الحياة نفسه. إنّه نسخة الجمال الأصليّ بالضبط. إنّه مادّة منسجمة بالكلّيّة مع التجسّد الإلهيّ».

طبيعة المسيح البشريّة هي من طبيعة مريم العذراء، إذ طهّرها الروح القدس قبل الحبل فصار جسد يسوع من جسدها. الطبيعة البشريّة لوالدة الإله حاضرةٌ في التجسّد، وفي البشارة، في الآلام، وفي الصلب، في القيامة، وفي الصعود. جسد العذراء هو هيكل اللّه، وما هيكل أورشليم سوى نموذج لمريم، المكان الحقيقيّ للّه، العرش الحقيقيّ للربّ، فحيث يستريح الملك يكون عرشه. لهذا تدعو الكنيسة جسد والدة الإله «ينبوع الحياة»، «الجسم القابل الإله والفائق الكرامة»، «تابوت اللّه»، و«مبدأ الحياة»[1].

الربّ يسوع له المجد أخذ من أمّه طبيعةً بشريّة وضمّها إلى أقنومه الإلهيّ، فصارت صلة وصل بينه، هو اللّه، وبيننا نحن البشر. صار اللّه إنسانًا ليصير الإنسان إلهًا. هو الغني يصير فقيرًا لكي أصير أنا غنيًّا عبر ألوهيّته.

جسد أمّ اللّه الذي «حفظ الحبل بكرامته، وحفظ البتوليّة بكرامة أسمى»، كما يقول القدّيس غريغوريوس اللاهوتي، يصيّرنا أخوةً للمسيح نفسه، لأنّنا معه وبه نتشارك مع ابن اللّه في طبيعةٍ بشريّة واحدة. ويضيف القدّيس سمعان اللاهوتيّ الحديث: «مثلما صار المسيح إلهنا أخًا لنا، هكذا نصير نحن أبناء أمّ اللّه وأخوة المسيح نفسه. فكما وُلد ابن اللّه منها كذلك جميع القدّيسين بدورهم يولدون، فهي أمّ جميع القدّيسين لكونهم في شركة مع جسد ابنها الطاهر». ويلخّص القدّيس بالاماس هذا السرّ العظيم بقوله: إنّ أمّ اللّه «مصدر وأصل سلالة الحرّيّة»، وإنّ جسدها – هيكل الله – هو الدواء الذي يخلّص نسلنا.

إنّ أمّ اللّه حاضرة، بجسدها، في كلّ سرٍّ للشكر الإلهيّ العظيم (الإفخارستيا)؛ هي حاضرة روحيًّا بشفاعاتها غير المنقطعة، وحاضرة جسدياً بصورة فريدة. ففي القربان نتناول جسدَ ابن اللّه ودمه المتّحدَين

١ صلاة غروب عيد الرقاد وصلاة سحره.

معه أقنوميًّا. وهما نفسهما قد منحتهما مريم العذراء لابنها وإلهها في تجسّده منها. يقول القدّيس سمعان اللاهوتيّ: إنّ نعمة الروح، تُدعى أيضًا نار الألوهة، تخصّ إلهنا ومخلّصنا بالطبيعة بصورة أساسيّة، لكن جسده لا يملك المنشأ نفسه، لأنّه يأتي من الجسد القدّيس الكلّيّ النقاوة، جسد والدة الإله، ومن دمها البريء من كلّ عيب؛ باتّخاذه منها صيّره خاصّته حتّى يمنح عندئذ القدّيسين ما ينبثق من الطبيعة ومن جوهر أبيه المساوي له في الأزليّة، نعمة الروح أي الألوهة.

لقد صارت مريم العذراء أمّ النّور، وصار جسدها مسكنًا للنّور.

رقاد السيّدة عيدٌ للموت

ابن اللّه المتجسّد تغلّب على الحواجز التي كانت تفصل الإنسان عن اللّه. بتجسّده تغلّب على حاجز الطبيعة البشريّة الساقطة. لاهوته ضمَّ طبيعتَنا المريضة وشفاها، فتألّهت بهذا الاتّحاد. بموته على الصليب تغلّب على الخطيئة فدفع أجرة الخطيئة التي هي الموت. وأخيرًا تغلّب على الموت بقيامته في اليوم الثالث. بقيامة الربّ، له المجد، صار الموت رقاداً وعبوراً إلى الحياة الأبديّة.

المسيحيّة هي الوحيدة التي تجرؤ على التعييد للموت، هذا المخيف الذي سيخطف الكلّ. لكنّ القيامة أماتت الموتَ بالموت. هذه الرؤية للموت هي بلا شكّ غريبة عن عالمنا المعاصر. لكنّ الكنيسة اعتادت التعييد لذكر رقاد قدّيسيها أو استشهادهم، أي لذكرى انتقالهم إلى السماء. الكنيسة لا تعيّد لولادة القدّيس بالجسد[٢]؛ إنها تعيّد لعيد ولادته بالقداسة التي تبدأ يوم معموديّته وتكتمل يوم انتقاله إلى السماء.

رقاد السيّدة العذراء اليوم هو عيد لا مأتم؛ إنّه فرح وتهلّل وحبور؛ فلا نواح ولا حزن ولا نحيب: «كريم في عيني الربّ موت أبراره» (مز ١١٦: ١٥). ترانيم الكنيسة تعكس هذا الجوّ البهيّ. الكنيسة اليوم ممتلئة من هذا الفرح السماويّ. الجميع ينشد اليوم أناشيد البهجة والفرح والحبور: «هلمّي يا أقطار الأرض كافّة نغبط انتقال أمّ الإله الموقّر الذي يُعيَّد ببهجة ومزامير وتسابيح وترنيمات روحيّة مع الملائكة والرسل». «... يبتهج الأرضيّون مزيَّنين بمجدكِ الإلهيّ»، «فنحن نعظّمكِ بأصوات البهجة»... اليوم يوم فرحٍ وبهجة لا نواح وعويلٍ. وإن سمعنا عن عبرات بطرس اليوم وهو يهتف نحو السيّدة، فهذا تأكيد الكنيسة الأرثوذكسيّة على أنّ والدة الإله اليوم قد ماتت حقًّا، وروحها الطاهرة فارقت جسدها، ولم يكن الأمر تمثيلاً أو خداعًا.

لقد حلّت مريم العذراء في اللحد فصار فردوسًا انتصب فيه هيكل شجرة الحياة وتابوت قدس اللّه، لأنّها هيكل اللّه الحيّ: «يا له من عجب مستغربٍ: إنّ ينبوع الحياة قد وُضعت في قبرٍ، واللحد صار سلّمًا مُصعدةً إلى السماء...».

كان من الطبيعي أن تموت والدة الإله لأنّها مولودة من أبٍ ومن أمّ (يواكيم وحنّة) ولادة طبيعيّة كسائر البشر. هي بالجسد ابنة آدم، لهذا كان عليها أن تخضع للموت الجسديّ مثل ابنها يسوع الذي صار مثلنا في كلّ شيء ما عدا الخطيئة (عبر ٤: ١٥).

في أمّنا العذراء مريم بانت ثمار الظفر على الطبيعة

٢ باستثناء عيد مولد والدة الإله (سيُخصَّص له بحث مستقل).

القديمة فظهرت فيها بواكير الطبيعة البشريّة الجديدة وسماتها. لقد احتفظت العذراء بالطبيعة البشريّة، إنّما تألّهت بنعمة المسيح فصارت طبيعتها فائقة الطبيعة التي نعرفها. لقد رقدت حسب سنّة الطبيعة، لكنّها قامت حسب الحياة الجديدة التي صارت لها بالربّ يسوع. اليوم ترنّم الكنيسة: «أيّتها النقيّة، بما أنّك برزتِ من صُلْبٍ مائت فقد قضيتِ بحسب سنّة الطبيعة، وبما أنّكِ ولدتِ الحياة الحقيقيّة انتقلتِ إلى الحياة الإلهيّة ذات الأقنوم»[٣].

اليوم تؤكّد الكنيسة على حقائق عدّة بآن واحد لا تنفصل بعضها عن بعض:

❋ والدة الإله، سيّدة الحياة قد ماتت وروحها فارقت جسدها وانطلقت إلى المسيح ابنها وإلهها: «أيّها الرسل اجتمعوا من الأقطار إلى هنا، في قرية الجثسمانيّة، وأضجعوا جسدي، وأنت تقبّل روحي، يا ابني وإلهي».

❋ جسد السيّدة غير قابل للفساد لأنّه ينبوع الحياة والنّور: «أمّا في ولادتكِ يسوع فحَبَلٌ بغير زرعٍ؛ وأمّا في رقادكِ فموتٌ بغير فسادٍ...»؛ ويقول القدّيس أندراوس الدمشقيّ: «كما أن بتوليّتها كانت بغير عيب أثناء ولادتها، هكذا في موتها كان جسدها غير فاسدٍ. يا لعجيبة العجائب! الولادة لم تسلبها، والقبر كان غريبًا عن الفساد»[٤].

❋ السيّدة قد قامت بالجسد إلى السماء: «إنّ والدة الإله... لم يضبطها قبرٌ ولا موتٌ، لكن بما أنّها أمّ الحياة نقلها إلى الحياة الذي حلَّ في مستودعها الدائم البتوليّة»، «إن المقدّم انتخابهم في الرسل هرعوا من الأقطار بالإشارة الإلهيّة لكي يُضجعوكِ، فلمّا أبصروكِ مرتقية من الأرض إلى العلى...».

موت المسيح أبطل الموت وأدخل فيه عنصر حياة أبديّة. هذه الرؤية تتحقّق في شخص والدة الإله البشريّ لأنّ جسدها، وإن مات فعلاً لكنّه لم يعرف فسادًا في القبر ولا انحلالاً. هذا ما ترتّله الكنيسة في هذا العيد: «إنّ الإله ملك الكلّ قد أثابك بما يفوق الطبيعة، لأنّه كما صانكِ عذراء في الولادة، كذلك حفظ جسدكِ في اللحد بغير فساد».

حدود الطبيعة غُلبت في والدة الإله، والتاريخ عاد فأحنى هامته احترامًا للتي رقدت في قبرٍ وهي التي وسعت في حشاها ملك الكون: «أيّتها البتول الطاهرة، إنّ حدود الطبيعة قد غُلبت فيكِ، لأنّ المولد بتوليّ والموت قد صار عربونًا للحياة، فيا مَن هي بعد الولادة بتول وبعد الموت حيّة، يا والدة الإله، أنتِ تخلّصين ميراثكِ دائمًا».

لم يستحل قبر والدة الإله إلى مكان للنواح والحزن، بل إلى ينبوع لا ينضب للفرح والأشفية، وسبيل للنعم والمواهب: «هلمّوا أيّها المؤمنون نتقدّم نحو ضريح أمّ الإله،... ونلامسه بوداعة مستمدّين مواهب الأشفية الغزيرة المتدفقة من الينبوع الدائم التسلسل».

رقاد السيدة عيدٌ للقيامة:

في اليوم الثالث لرقاد أمّ النّور، كما يقول التقليد المقدّس، وأثناء اجتماع الرسل، ظهرت لهم والدة الإله، في الهواء، بجسدها، ماثلةً أمامهم، معزيّةً ومباركة إيّاهم، فأيقنوا أن أمّ اللّه قامت بجسدها مثل ابنها[٥].

٣ بدأ تكريم رقاد والدة الإله في العبادة والليتورجيا الكنسية ولدى آباء الكنيسة منذ القرن الثاني الميلاديّ. منذ القرن الرابع كانت مريم موضوع كمّيّة متنامية من الأدب الكنسيّ. ومنذ القرن الخامس وما بعد، كلّ آباء الكنيسة تقريبًا كتبوا مواعظ وتعليقات عنها. وفي القرن الخامس بدأ عيد تكريم والدة الإله في ١٥ آب في كنيسة قرب أورشليم القدس. ومع بدء القرن السادس بدأ الاحتفال بصورة خاصّة بعيد رقادها في ١٥ آب في باسيليكا الجثسمانيّة في أورشليم حيث يوجد قبرها. وفي نهاية القرن السادس أصدر الإمبراطور موريس قرارًا بتعييد عيد رقاد السيّدة في كلّ أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة.

٤ الموعظة الثالثة على الرقاد.

٥ في مجمع أرثوذكسيّ محلّيّ تعبّر الكنيسة الأرثوذكسيّة عن إيمانها بقيامة العذراء: «حتّى لو كان جسدها الطاهر قد قُبر، فقد انتقلت، بعد ثلاثة أيّام، إلى السموات بجسدها، بالطريقة ذاتها التي صعد بها المسيح» (أعمال مجمع أورشليم (١٦٧٢).

نحن سنقوم أيضًا بالجسد، إنّما في يوم القيامة، أمّا أمّ اللّه فقد قامت سلفًا لأنّها كانت ما وراء الموت والقيامة والدينونة العامّة.

لقد حُفظت كيفيّة قيامة والدة الإله بالجسد سرًّا، مثل قيامة ابنها وإلهها، لكنّها قامت وتأكّد الرسل خلوَّ مضجعها فسبّحوا اللّه وسبّحوها طالبين الشفاعة: «بما أنّكِ خدرٌ للحياة، فقد نلتِ الحياة السرمديّة، لأنّكِ بواسطة الموت انتقلتِ إلى الحياة، يا مَن ولدتِ الحياة ذات الأقنوم». «إنّ والدة الإله التي لا تغفل في الشفاعات لم يضبطها قبر ولا موت». بمقدار ما تؤكّد الكنيسة الأرثوذكسيّة على رقاد السيّدة بمقدار ما تؤكّد قيامتها في الجسد. يهتف جيرمانوس بطريرك القسطنطينية: «لم يكن انتقالها غير مُعايَن، ولا كان رقادها كاذبًا»[٦].

قيامة والد الإله قبل القيامة العامّة هي تمجيد اللّه لجسدها نتيجة للأمومة الإلهيّة، كما يقول القدّيس بالاماس: «الأرض والقبر والموت لم يُمسكوا إلى الأبد جسدها المانح الحياة والمستقبِل اللّه، المسكن المفضَّل أكثر من السماء وسماء السموات. إذاً، إن كانت نفسُها، مكان سكنى نعمة اللّه، قد صعدت إلى السماء عندما حُرمت من الأشياء الدونيّة هنا، وهو شيء واضح للغاية، فكيف يمكن للجسد الذي لم ينل في ذاته فقط ابن اللّه الذي قبل الأزل والمولود الوحيد، ينبوع النعمة الذي لا ينضب، بل أظهر أيضًا جسده بطريقة الولادة، كيف يمكن لهذا الجسد أن لا يُؤخذ هو أيضًا إلى السماء؟»[٧]. هي في السماء، لا تنال منها الدينونةُ لأنّها ملكة السماء وسماء السموات.

طبيعتنا البشريّة قامت من الموت بصورة جامعة في شخص ابن اللّه السرمديّ، وقامت من الموت بصورة شخصانيّة في شخص أمّ اللّه، فكانت العذراء أوّل أقنوم بشريّ يقوم من الأموات قيامةً لا موت بعدها، بل قيامة تصعد بعدها إلى ملكوت النّور والحياة لأنّها أمّ النّور والحياة. بقيامة العذراء بالجسد، بعد انتقال روحها، تمّت بواكير الظفر على حدود الطبيعة البشريّة الحاليّة. نرتّل اليوم: «أيّتها البتول الطاهرة، إنّ حدود الطبيعة قد غُلبت فيك، لأنّ المولد بتوليّ، والموت قد صار عربونًا للحياة..».

يختلف تعليم الكنيسة الأرثوذكسيّة عن رقاد العذراء وصعودها إلى السماء عن تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة في صعود العذراء إلى السماء. الكنيسة الكاثوليكيّة لا تعترف بأنّ العذراء قد ماتت وقُبرت، وهو تعليم أرثوذكسيّ أساسيّ.

عقيدة الحبل بلا دنس تقول إنّ مريم قد حُبل بها بدون أن ترث ذنب الخطيئة الأصليّة أو نتائج الخطيئة الأصليّة. وكما علّم أوغسطينوس، بما أنّ الموت هو عقاب متعمَّد لآدم وحواء قد فرضه اللّه على آدم وكلّ ذريّته بسبب سقوط آدم، لهذا كان من غير المعقول لمريم أن تموت (من غير المعقول للّه أن يعاقبها بالموت على ذنب لم ترثه) لأنّها لم ترث هذا الذنب. بينما تعلّم الأرثوذكسيّة أنّ الموت قد دخل العالم بسبب (كنتيجة) خطيئة الإنسان وسقوطه. فاللّه لم يخلق الموت. البابا بيوس الثاني عشر ذكر في تعليمه بصعود العذراء إلى السماء إجماع آباء الكنيسة بأنّ العذراء قد انتقلت جسدًا وروحًا إلى السماء. لكن ما

٦ الموعظة الثانية على الرقاد.

٧ الموعظة على رقاد السيّدة.

أغفله البابا بيوس هو تعاليم الآباء المهمّة التالية: اللّه لم يخلق الموت (بل كان نتيجة لسقوط آدم)، العذراء ماتت حقًّا (روحها غادرت جسدها) والمسيح استقبل روحها البارّة. الرسل القدّيسون اجتمعوا من أنحاء المعمورة ليشتركوا في تجنيز أمّ الحياة، المسيح أصعد أمّه البارّة من القبر بالجسد في اليوم الثالث، جسد العذراء لم يعرف فسادًا لأنّه جسد أمّ الحياة المتألّه. لم تستطع الكنيسة الكاثوليكيّة أن تعترف بأنّ العذراء قد ماتت فعلاً قبل صعودها إلى السماء وإلاّ لتعارض هذا التعليم مع تعليم «الحبل بلا دنس» ومع اللاهوت الأوغسطينيّ، ومع «عصمة البابا» ومع تعليم مجمع ترنت القائل بأنّ اللّه خلق الموت كقرارٍ قضائيّ غاضب لعقاب البشريّة.

لا يمكن القول ببساطة إنّ الأرثوذكس والكاثوليك يشتركون في التعليم الواحد بصعود العذراء إلى السماء. لأنّه من المستحيل للإيمان الأرثوذكسيّ أن يعترف بصعود العذراء إلى السماء بالجسد قبل أن يؤمن بأنّها ماتت فعلاً ودُفنت. لهذا السبب تفضّل الكنيسة الأرثوذكسية استعمال تعبير «رقاد العذراء» لعيدها في ١٥ آب (بالتقويم الجديد) بدلاً من تعبير «صعود العذراء». فتعبير «صعود العذراء» بدون موتها يرفعها إلى مستوى إلهة[٨]. لهذا يقول القدّيس يوحنّا الدمشقيّ: «نحن نحتفل برقادها. نحن لا ندعوها إلهة؛ لا سمح اللّه! أساطير كهذه تنتمي إلى شعوذة وثنيّة، لأنّنا حتّى نعلن موتها»[٩].

إنّ أساس عدم فساديّة طبيعة العذراء البشريّة في القبر هو في الحبل بالمخلِّص وولادته الطاهرة كما يعلّم الآباء. فالعذراء المخصّبة بلاهوته منذ الحبل «صارت شريكة جسديّة co-somatic له في عدم الفساد... فجسدها الممتلىء بالمجد، إناء الحياة، كان أصل عدم الموت وعدم الفساد المتدفّقَين من الروح القدس». (موديستوس الأورشليميّ)[١٠]. كلّ خصائص والدة الإله نابعة من نعمة الروح القدس الحالّ فيها بطريقة عجائبيّة، وليس من أيّة خصائص فريدة لطبيعتها البشريّة. فبالروح القدس الحالّ فيها حبلت بالمسيح، وبالروح القدس استطاعت أن تحمل في حشاها إله الخليقة وملء اللاهوت بدون أن تحترق به. وبالروح القدس استطاعت أن تتحمّل معاينة أسرار اللّه أثناء الحبل بابنه وبعده. وبالروح القدس صارت أمًّا للمسيح وأمًّا للمؤمنين. وبالروح القدس ماتت بدون أن يفسد جسمها وقامت وصعدت إلى السماوات. وأخيرًا بالروح القدس صارت شفيعة لا تخيب في الشدائد والأحزانٍ تتألّم مع المتألّمين وتحزن مع الحزانى وتُضطّهَد مع المضَطّهَدين. رغم هذا كلّه، فوالدة الإله لم تكن مجرّد أداةٍ أو وسيلة لغايات اللّه. لو لم تكن أفضل وأسمى وأنبل مخلوق بشريّ في التاريخ البشريّ لما كان اللّه قد اختارها أمًّا لابنه، ولو وُجدت إنسانة أفضل منها لكان الخيار الإلهيّ غير عادلٍ وهذا أمر مستحيل. حياة العذراء الفريدة منذ صغرها أكبر مثالٍ على هذا التميّز في حياتها حتّى قبل اختيار اللّه لها.

لقد أعطت الحياةَ للبشريّة في المسيح، وهو شيء لم تكن لتستطيع فعله لو كانت تحت سيطرة فساد الموت والانحلال. إنّ «جسدها المانح الحياة» كان أوّلاً «الجسد المستقبِل اللّه». يقول يوحنّا الدمشقيّ: «في الولادة،

٨ لأنّها بهذه الحالة ستكون قد وُلدت بطريقة عجائبيّة فائقة الطبيعة البشريّة، ولم تمت بل انتقلت مباشرة إلى السماء!

٩ Second Encomium on the Dormition ch. 15

١٠ أيضًا يوحنّا الدمشقيّ وأندراوس الدمشقيّ وجيرمانوس القسطنطينيّ وآباء آخرون.

بقيت بتوليّتها غير ممسوسة، والآن في انتقالها، يُحفَظ جسدها غير فاسدٍ» (الموعظة الأولى على الرقاد). ويقول جيرمانوس بطريرك القسطنطينيّة: «مثل واحدة منّا تمامًا، كان لها جسدٌ؛ لهذا لم يكن بإمكانها أن تنجو من مواجهة الموت، المصير المشترك لجميع الناس... كان من المستحيل عليها، وهي الإناء الحاوي اللّه، أن تتلاشى بالموت إلى تراب»[١١].

انتقالها إلى السماء جعلها «باكورة شركة اللّه، أبي كلّ الأشياء، مع الخليقة التي خلقها وباكورة مشاركته في طبيعة الخليقة. كانت (العذراء) عربونًا حيًّا للمصالحات التي اجترحها اللّه»[١٢].

جسد العذراء هو مصدر جسد يسوع. جسدها هو تابوت اللّه، وعلّيقة مشتعلة وهيكل عبادة حيّ؛ إنّه مصدر الحياة والنّور والنعمة والعجائب. فلا فساد ولا دينونة بقادرين على أن تطال هذا الجسد المتألّه بأنوار لاهوت المسيح. قام المسيح في اليوم الثالث والعذراء تقوم. يقول القدّيس بالاماس: «لهذا، فالجسد الذي قدَّم الولادة قد مُجِّد سويّة مع الذي وُلد منه بمجدٍ يليق بإله، و-تابوت القداسة- قد أُقيم، بحسب النشيد النبويّ، سويّة مع المسيح الذي قام سابقًا من الأموات في اليوم الثالث»[١٣].

رقاد السيدة عيد للصعود

في عيد رقاد السيّدة تعيّد الكنيسة لصعود العذراء القدّيسة وانتقالها إلى السماء. نرتّل: «إنّ أمّ الإله، التي ولدت الإله، الفائقة البركات وحدها، تنتقل بمجدٍ من الأرض إلى السماوات». هذا المعنى مهمّ جدًا، لأنّه، كما في معنى القيامة، صعدت سيّدتنا والدة الإله إلى سماء السموات بما أنّها هيكل اللّه وعرشه وتابوته وأمّه، كما صعد ابن اللّه المتجسّد إلى السماء. في صعود السيّد المسيح دخلت طبيعتنا البشريّة جمعاء، معه وبه وفيه، لتجلس عن ميامن الإله الآب في شخصه الإلهيّ المجيد. في رقاد والدة الإله وانتقالها بالجسد إلى السماء، دخلت طبيعتنا البشريّة، معها وبها وفيها، قدس أقداس الملكوت في شخصها البشريّ. فصعود يسوع هو صعود جامعٌ للطبيعة البشريّة ككلّ[١٤]. صعود العذراء هو صعود شخصانيّ للطبيعة البشريّة في شخص بشريّ متألّه هو شخص أم اللّه.

كانت العذراء أوّل شخص بشريّ متألّه يدخل الأمجاد السماويّة حيث عرش اللّه. «أيّتها البتول: إنّ المولود منكِ قد أحلّكِ في قدس الأقداس، بما أنّك منارةٌ مضيئة للنار غير الهيوليّة، ومبخرةٌ ذهبيّة للجمرة الإلهيّة بالحقيقة، وجرّة وعصا ولوح مكتوب من اللّه، وتابوت مقدّس، ومائدة خبز الحياة». ونرنّم أيضًا: «هلمّوا بنا نبتهج.. إذ نعاين والدةَ الإله، لأنّ المسيح قد نقلها إلى المسكن الإلهيّ الأفضل، في قدس الأقداس بما أنّها أمّه».

بصعودها إلى السماء تتجلّى والدة الإله بوابةً وسلّمًا يربط الأرض بالسماء. هذا السلّم سبق ليعقوب ورآه وملائكة اللّه تصعد وتنزل عليه[١٥]. شفاعة والدة الإله تحوّل المؤمنين إلى ملائكة للّه تصعد نحوه بها، فيتحنّن الله ويغدق بنعمه ومراحمه عليهم بها أيضًا. نرتّل اليوم: «إنّ قبر والدة الإله قد حصل سلّمًا مُصعدة إلى السماء الممجِّدين إيّاها..». ونرتّل أيضًا في مدائح السيّدة: «افرحي يا سلّمًا سماويّة بها انحدر الإله؛

١١ الموعظة الأولى على الرقاد.

١٢ أندراوس الدمشقيّ، الموعظة الثالثة على الرقاد.

١٣ الموعظة على رقاد السيدة.

١٤ أقنوم المسيح أقنوم إلهيّ لا بشريّ. المسيح له المجد أخذ من والدة الإله طبيعة بشريّة بدون أقنومٍ أيّ طبيعة جامعة. قام هو بضمّ هذه الطبيعة البشريّة إلى أقنومه الإلهيّ المجيد.

١٥ تكوين ٢٨: ١١-١٩.

افرحي يا جسرًا ناقلاً الذين على الأرض إلى السماء» (المدائح، الدور الأوّل).

لقد صعدت والدة الإله بالجسد أيضًا إلى قدس الأقداس السماويّ، نتيجة لأمومتها الإلهيّة، لأنّها، كما قلنا، أبعد من القيامة والدينونة العامّة سلفًا. والكنيسة تؤكّد حقيقة القيامة بالجسد هذه بالوقت ذاته الذي تؤكّد فيه حقيقة رقادها بالجسد. لقد احتمل اللّه أن تموت أمّه بالجسد، إنّما بدون فناء وذلك حتّى لا تبدو طبيعتها البشريّة أنّها من أصل مختلف عنّا، وتاليًا حتّى يُحفظ سرّ التجسد الإلهيّ منها. تنشد الكنيسة للسيّدة: «يا والدة الإله، إنّ يسوع ابنكِ وإلهك، قد حقّق أنّه ذو طبيعتين، فمات كإنسانٍ، وقام ناهضًا كإلهٍ. وقد سُرَّ أن تقضي أجَلكِ بحسب ناموس الطبيعة، يا أمّ الإله، لئلاّ يُظن عند الكفّار، أنّ التدبير كان وهمًا وخيالاً، فانتقلتِ إلى السماوات أيّتها العروس السماويّة، مرتقية من الأرض كما من خدر جسدك، فتقدّس الجوّ في صعودك، كما استنارت الأرض بولادتك. فإنّ الرسل قد شيّعوكِ، والملائكة استقبلوكِ، وإذ كانوا يجهزّون جسدكِ الكلّي الطهر، مرتّلين تسبيح التجنيز، رأوكِ مرتقية إلى العلى، فارتاعوا قائلين بخوفٍ: هذا تغيير يمين العليّ». يا للعجب ويا للغرابة! كيف مَن وسعت مَن لا تسعه السموات والأرض توضع في قبرٍ وتُفنى مثل الناس؟ كيف مَن حملت في حشاها إله الحياة بدون أن تحرقها نار اللاهوت تستسلم للموت بتواضعٍ وفرحٍ؟ ننشد اليوم: «إنّه لعجبٌ مرهوب جدًّا، كيف التي حملت في حشاها الملكَ غير الموسوع، توضع في قبر، وجماهير الملائكة مع الرسل يجهزّون بخوفٍ جسدها الكريم القابل للإله، الذي قد أصعده إلى علوّ السموات، ابنها يسوع المخلِّص نفوسنا».

سيّدتنا أمّ المراحم تفوق البشر جميعًا، وتفوق الملائكة أيضًا. فهي وحدها سيّدة السماء وملكتها وأمّ الحياة. هي وحدها ولدت المسيح بالجسد فولدها المسيح بالروح. نحن نولَد بالروح من المسيح، أمّا جسدنا فما زال تحت الدينونة حتّى اليوم الأخير. لقد صارت والدة الإله الآن ما سيكون عليه المؤمنون بعد الدينونة العامّة، وإن يكن نسبيًّا وعلى درجات. لهذا، لا تستطيع خليقةٌ أن تماثل في قداستها قداسة والدة الإله. ليس هذا مبالغة أو تعظيمًا. إنّه حقيقة واقعيّة. يقول القدّيس بالاماس: «بصعودها الآن من القبر، أُخذت من الأرض وتبلغ السموات وهذه أيضًا تتجاوزها العذراء، وتجعل أولئك الذين في الأعالي متّحدين بأولئك الذين أسفل، شاملة الجميع بالمأثرة العجائبيّة الصائرة فيها. بهذه الطريقة كانت هي في البدء – أنقص قليلاً عن الملائكة – (مز ٨: ٥)، كما قيل، مشيراً إلى قابليّتها للموت، مع ذلك فهذا خدم بتعظيم تفوّقها بالنسبة إلى كلّ البرايا»[١٦].

هي وحدها اختارها إله الخليقة لتكون أمًّا لابنه؛ هي وحدها التي حلَّ عليها الروح القدس حلولاً خاصًّا ليتجسّد منها ابن اللّه؛ هي وحدها التي وسعت ابنَ الله، ملك الملوك وربّ الأرباب، في حشاها تسعة أشهر؛ هي وحدها التي ولدته بالجسد؛ هي وحدها التي أرضعته وربّته فكانت أمّه وأمَتَه وخليقته؛ هي وحدها التي كان جسدها مصدر جسده. هي وحدها التي أظهرها اللّه إناءً شاملاً جامعًا لكلّ الأشياء الإلهيّة

١٦ الموعظة على رقاد السيّدة.

والملائكيّة والبشريّة، الصالحة والجميلة كما يقول بالاماس. لهذا وإن بقيت بالجوهر إنسانًا فقد نالت صفات إلهيّة بالنعمة. يقول القدّيس بالاماس: «والدة الإله هي وحدها التي وقفت بين اللّه وكامل السلالة البشريّة، فاللّه صار ابن الإنسان وجعل الناس أولاد اللّه؛ هي جعلت الأرض سماويّةً، هي ألّهت السلالة البشريّة، وهي الوحيدة بين النساء قاطبة أُظهرت بأنّها ستكون أمًّا بالطبيعة وأمّ اللّه متجاوزة كلّ ناموسٍ للطبيعة، وبولادتها غير الموصوفة ستكون ملكة كلّ البرايا، الأرضيّة والسماويّة معًا»[١٧].

رقاد السيّدة عيد للعنصرة، عيد لامتلائها من البهاء الإلهيّ

في العنصرة انسكب الروح القدس على الرسل في العلّيّة، وفي وسطهم كانت أمّ اللّه حاضرة (أعمال ١: ١٤ و٢: ١- ٤). هذا الانسكاب جعل المسيحيّين هياكل للروح القدس، لروح اللّه، وأعضاء في جسد واحدٍ هو جسد ابن اللّه، ورأسه المسيح له المجد. في هذا الجسد تقف أمّ اللّه قلبًا له، في لحمة لا تنفصم مع أعضائه، تشدّدهم وتعضدهم لخلاصهم. حقًّا، كما يقول القدّيس سمعان اللاهوتيّ الحديث: إنّه قولٌ مستحقّ القبول، لأنّ جسد الربّ هو جسد أمّ اللّه، وجسد الربّ هو الكنيسة، ومن هنا نستنتج هذه العلاقة العضويّة بين والدة الإله والمؤمنين. وعيد الرقاد هو احتفال بصعود جسد أمّ اللّه إلى السماء، هذا الجسد متّحدٌ معنا بالروح القدس بصورة فريدة، لهذا نتضرّع إلى والدة الإله لتتشفّع فينا، نحن المشاركين معها في الجسد الواحد المتألّه، في النسبة البشريّة الواحدة:

«هلمّوا يا معشر المحبّي الأعياد، هلمّوا نتوّج البيعة بالأناشيد، في رقاد تابوت اللّه لأنّ السماء اليوم تبسط أحضانها، متقبّلة التي ولدت مَن لا يسعه الكلّ... فلنسجد لها جميعًا مبتهلين وقائلين: لا تنسي أيّتها السيّدة المشاركين لكِ في النسبة البشريّة، المعيِّدين بإيمانٍ لرقادكِ الكلّيّ قدسه».

في أمّ اللّه تتحقّق الصورة التي رسمها القدّيس مكسيموس المعترف بكلّ حلّتها، في أنّ الإنسان كنيسة صوفيّة. فوالدة الإله هي الكنيسة الصوفيّة، وهي الكون الكبير الجامع للأرض مع السماء. إنّ نفس الإنسان - كما يقول القدّيس مكسيموس - تمثّل هيكل الكنيسة، ونفس والدة الإله قد صارت قدس أقداس السماء على الأرض، إذ فاقت بقداستها جميع البشر والملائكة. وذهن الإنسان يمثّل مذبح الكنيسة الإلهيّ، وذهن والدة الإله قد عاين ويعاين على الدوام أعظم الأسرار الإلهيّة، وارتقى إلى علوٍّ لا يُسبَر غوره واستطاع احتمال معاينة ما لا يُعايَن: اللّه الصائر إنسانًا معلّقًا على الصليب. أمّا جسد الإنسان فيمثّل صحن الكنيسة. ووالدة الإله هي التي أعطت لابن اللّه لحمًا من لحمها، وعظمًا من عظمها. لقد أعطته الجسد الذي صار الكنيسة المقدّسة التي تجمع فيها جميع المؤمنين، أعضاءً لابن اللّه، وأولادًا لأمّ اللّه. أيّ سرٍّ عظيم هذا! حقًّا إنّ والدة الإله الفائقة القداسة تسكن بالكلّيّة في اللاهوت الصوفيّ، لأنّها مستحقّة سكناه. موت والدة الإله نقلها إلى الحياة الأبديّة، فصارت بالروح القدس تشارك المؤمنين في حياتهم وجهاداتهم وصلواتهم. إنّها تُغدق بالنعم الإلهيّة عليهم لأنّها مفتاح هذه النعِم

١٧ الموعظة على رقاد السيّدة.

وإناؤها وقناتها. وكما يقول القدّيس بالاماس: «إنها الآن قد صارت عديمة الموت بعد الموت ووحدها تسكن سويّة مع ابنها وإلهها في جسدها. لهذا السبب فإنّها تسكب من هناك نعمة وافرة على أولئك الذين يكرّمونها لأنّها إناء نعمة عظيمة وتمنحنا حتّى مقدرتنا على النظر إليها».

لا يمكن للكلمات أن تفي شفاعة والدة الإله حقّها الواجب. إنّها صلاة تفوق الصلاة، وشفاعة تفوق الكلمات. حتّى لو كانت ساعات حياتنا فرحًا وزفافًا كعرس قانا الجليل، تظلّ والدة الإله بيننا، تتفقّد احتياجاتنا، وتطلب من ابنها وإلهها أن يسكب علينا خمره الروحيّ. حتّى لو كانت ساعات حياتنا حزنًا وألمًا أمام الصليب، ستأتي والدة الإله لتحتضننا وتعزّينا لأنّها أمّنا، وهل نرفضها بعد أن قبلها اللّه أمًّا له!

إنّ أمّ النّور تنقل إلينا النّور الإلهيّ. يكتب القدّيس سمعان اللاهوتيّ الحديث عن نفسه عندما كان شابًّا أنّه: «بقلب بائس، بتنهّد ودموع، كرّر الصلوات للعذراء مريم». إنّ غيرته العظيمة في الصلاة جذبت حنوّ أمّ اللّه، وبشفاعتها صار اللّه إيجابيًّا نحوه، ودفع بنعمة الروح القدس لتنزل عليه. هذا بدوره أعطاه القوّة حتّى يصل إلى السماء، وجعله مستحقًّا حتّى رؤية النّور الذي يرغب فيه الجميع، إنّما قلّة جدًّا تصل إليه.

مهما قلنا عن والدة الإله مريم ومهما ذكرنا من عظائم وميّزاتٍ، لن نستطيع أن نسبر أغوار سرّها ولن نصل إلى قمم قداستها ولمعان طهارتها. يقول عنها القدّيس بالاماس: «إنّها وحدها في التخم بين الطبيعة المخلوقة والخالقة، ولا يوجد إنسان يأتي إلى اللّه بدون أن يستنير حقًّا عبرها، ذلك المصباح المتوهّج بالألوهة حقًّا، كما يقول النبيّ: «اللّه في وسطها فلن تتزعزع» (مز ٤٦: ٥)». ويسجّل هذا القدّيس العظيم ذهوله بقداسة أمّ القداسة وبمحبّة أمّ المحبّة وبنعمة أمّ النِعَم وبشفاعة أمّ اللّه: «مَن يستطيع أن يصف بالكلمات جمالك اللامع الرائع، أيّتها العذراء أمّ اللّه؟ الأفكار والكلمات قاصرة على وصف صفاتك، لأنّها تفوق العقل والكلام. رغم ذلك من اللائق أن نرتّل نشائد التسبيح لكِ، لأنّكِ إناءٌ يحوي كلَّ نعمةٍ، وملءُ كلّ الأشياء الصالحة والجميلة، واللوحة والأيقونة الحيّة لكلّ صلاحٍ وكلّ استقامة، لأنّكِ وحدكِ اعتُبرتِ مستحقّةً أن تنالي ملءَ كلّ موهبةٍ للروح القدس. أنتِ وحدكِ حملتِ في رحمكِ مَن توجد فيه خزائن كلّ هذه المواهب وصرتِ خيمةً عجائبيةً (للمسيح)؛ لهذا رحلتِ بطريق الموت إلى عدم الموت ونُقلتِ من الأرض إلى السماء، كما يليق، بحيث تسكنين معه أبديًّا في سكنى فائق السماء. من هناك تهتمّين دائمًا باجتهادٍ بميراثكِ؛ وبشفاعاتكِ التي لا تنام معه تُظهرين رحمةً نحو الجميع».

«أية نشائد روحيّة، نقدّم لكِ الآن يا كلّيّة القداسة، لأنّكِ برقادك العادم الموت، قدّستِ العالم بأسره، وارتقيتِ إلى ما فوق العالم، متأمّلة جمال الضابط الكلّ، ومبتهجة معه كوالدة له، محتفّة بكِ أيّتها النقيّة الطغمات الملائكيّة، ونفوس الصدّيقين، فمعهم استمدّي لنا، يا نقيّة، السلامة والرحمة العظمى».

آمين. ❑